السودان، والتفات أوجب! (*)

لست بهذا العنوان أتجاهل الجهود المكثفة التى تبذلها الدولة المصرية تجاه السودان الشقيق، ولا دور وزاراتها من خارجية وري وغيرها، لا ولست أنكر الأخوة العميقة والمودة العريضة التى بين أبناء وادى النيل، ولا الوشائج التى تربطهم على مدار الزمن. ولا الحاضر السخى القائم رغم المؤامرات والدسائس، ورغم " العكارات "التى تحدث من وقت لآخر بأفاعيل أو أغراض أو أخطاء السياسة، بما فيها أخطاء النوايا الحسنة.. السودان فى عين مصر. مثلما هو فى عيون المصريين. التحام مصر والسودان التحام شعب وأرض وتاريخ ومصير ونيل وواقع ترجم عن نفسه عبر مئات السنين، وجعل من تعانق البلدين والشعبين تعانقاً خاصاً. هذه الحقيقة فرضت وتفرض نظراً أعرض وأعمق وأوسع فهما وصدرا لسحابة ميدان الدكتور فؤاد محيى الدين المعروف باسم ميدان جامع محمود بمنطقة المهندسين!.. بدت هذه السحابة، مع التسليم بطول الصبر وحسن المقاصد والنوايا، كالقنبلة الذرية التى نسفت عماراً ضخما ونسفت معه آثار فضيلة الصبر الطويل السياسى والإدارى الذى مدت الحكومة المصرية حباله فى التعامل مع المشكلة من وقت تحوصل مسبباتها حتى تفجرت فى المعالجة تفجراً لم يقصده ولم يرده أحد، ثم بدأت تقذف بتداعياتها غيوماً تهدد - مهما كانت وقتية - المناخ السائد من قرون بين شعب الوادى بمصره وسودانه، وتفجر حساسية فى الجنوب السودانى دعت السلطات السودانية إلى ترحيل المصريين

---

* ٢٠٠٦/٢/١٢

مخافة تصاعد احتقان غير مستبعد تداعيه من آثار سحابة معالجة الاعتصام وما صاحب فضه لنقل المعتصمين إلى مكان آخر، من خسائر عزيزة على الجميع لم يردها أحد، ولا يقبلها أحد، وأضنت وتضنى مصر وشعبها، مثلما تضنى السودان الشقيق وشعبه !!

على أن محاولة إبعاد شبهة الخطأ عن الإدارة المصرية فى معالجة أزمة الاعتصام وفضه الواجب، جَرَّت بغير قصد إلى عدم الالتفات - أو بالقدر الكافى - إلى واجب أوجب من الدفاع وإبداء الأسف، وهو واجب الاعتذار للسودان صراحة وبلا لبس وبغير مواربة عما حدث من خسائر فى أرواح عزيزة لا يغفر حسن النوايا فداحة المصاب فيها ولا يزيح الحزن الغامر العميق على الراحلين!.. هذا الاعتذار الواجب لا يضير مصر ولا الإدارة المصرية، بل يضيف إليها، ولا ينحل هذا الاعتذار الواجب إلى" إدانة "تخل بمنطق أو موجبات الدفاع عن الموقف المصرى.. فمع الإيجابيات العديدة الصادقة التى تساند الموقف المصرى وتورى بأن مصر بذلت من سعة الفهم وطول الصبر والأناة فوق ما يطلب إليها، إلاّ أن هذا شىء يختلف كل الاختلاف عن التوفيق أو عدم التوفيق فى فض الاعتصام ونقله إلى مكان أرحب ظروفا وأوسع مناسبة من الميدان الذى يُطل عليه المسجد الكبير، والسفارات، والبيوت التى أخذ سكانها يعاينون ما يجرى من قضاء الحوائج بأنواعها مما لا يليق أن يكون تحت النظر والحواس!!.

فلم يكن عدم التوفيق - إن كان - فى أسلوب الفض وارداً فى التخطيط أو فى النوايا والمقاصد.. فى كل الدنيا قد يأتى تنفيذ القرارات على ما قدر لها، وقد يصيبه الجنوح أو عدم التوفيق!!.. هام هنا وبغض النظر عن الخطأ والصواب - إبداء الفارق بين "القرار"، وهو رؤية وتقدير - وبين "التنفيذ" وهو فاعليات وتداعيات قد يصاحبها ما يخرج بالحادث عن حسابات التخطيط للقرار وتقدير حساباته!..

هذه الجزئية لا تزال تحتاج إلى إيضاح صريح يبدى بغير مواربة ولا تحسب لموجبات الدفاع عن القرار أو عن الأفراد المنفذين، أن مصر حكومة وشعباً تأسف وتعتذر عن خسارة أرواح عزيزة غالية لا ترتضيها مصر، وأنها تأسف ويأسف كل الشعب المصرى لضياعها، حتى وإن قام للتنفيذ عذر أو أعذار من ظروف الحال وتداعياته، وانفعالات أو ردود أفعال المعتصمين، فضلاً عن حسن النوايا والمقاصد التى لا شك ولا ينبغى أن يشك فيها أحد.. هام جداً أن يبدى للإخوة السودانيين أن مصر وشعبها آسفون حزانى أشد الأسف والحزن على هذه الأرواح العزيزة، وأن شيئاً لا يحول ولم يحل بين مصر وبين التحقيق الجدى الجارى لتقدير ما حدث وللمساءلة عما عساه يكون قد تداعى أثناء تنفيذ فض الاعتصام من خطأ لم يقصده ولم يرده أحد. أن يتضمن "الاعتذار" - وهو واجب فى كل الأحوال - آن لا شىء يحيد بهذا التحقيق عن رصد الواقع والحقيقة واتخاذ اللازم بشأنها على سنن الحق والعدل والإنصاف !

يخطىء من يظن أننى أستحضر بهذه الكلمات صفحة طويت، فهذا اعتقاد ضرير، لأن قلوباً لأحياء، هناك فى السودان، لاتزال وستبقى آسيةً حزينةً لمدىً لايعرفه إلاّ الله تعالى على الأهل أو الأقارب أو الأصدقاء الذين ذهبوا ولن يعودوا.!.. هذه المشاعر المكلومة لا تنحسر ولا تهدأ بين يوم وليلة، وتحركها وتستثيرها عوامل إنسانية وطبيعية لاحصر لها، والعلاقة بين المصريين والسودانيين أغلى من أن نغفل أى سحابة تعكرها أو تترك لدى الإخوة فى السودان أى انطباع مغلوط بأن مصر ضاقت بأبناء للسودان،أو غلظت فى معاملتهم، أو استهانت بهم أو بأرواحهم.. مهم آن يعرف السودانيون قبل المصريين أحوال هذا الاعتصام وكيف كان فى هذا المكان، وكيف وصل إلى حدود متفجرة على مشهد المحيط الواسع بالمكان، الذى يرى ويعاين ما انفلت على مدار شهور لايمكن فيها كتم قضاء حاجات

متنوعة تخدش الحياء على مرأى الناس وفيما بين المعتصمين أنفسهم، وأنه إن كان فض الاعتصام ونقله إلى مكان أرحب أمراً واجباً بعد هذا الصبر الطويل الذى لم يعد يحتمل المزيد، فإن مصر حكومةً وشعباً لا تقبل أى تجاوز فى تنفيذه، وأنها شرعت فى تحقيق دقيق لتقدير ما حدث ووزنه ومساءلة من عساه يكون مسئولاً فيه!

لست بهذا أستبق الأحداث، أو أوجه لوماً لأحد، ولا أُخَطِّئ أحداً، فقد يكون الكل بريئا من أى مسئولية، عن العمد أو الاهمال أوسوء التقدير، ولكن مهم أن يرى الناس والإخوة فىالسودان - تحقيقا قد أنجز وانتهى إلى نتيجة مدعومة بأسباب وحيثيات، هذه واحدة، والثانية لا علاقة لها بنتيجة التحقيق، فافتراض براءة الكل من أى خطأ لا ينفى الواجب الأدبى لمصر تجاه الإخوة السودانيين الذين عشنا أعمارنا ننظر إليهم وينظرون إلينا على أننا معا نسيج شعب واحد.. هذا الواقع يفرض أن تعامل الحكومة المصرية ضحايا الحادث، الأحياء والراحلين، بذات المعاملة التى تبذلها للمصريين فى الحوادث والنكبات، من تعويض وجبر للضرر ينطلق من واجب مصر فى كفالة بنيها وكفكفة ما ينزل بهم من مآس أو نكبات أو كوارث أو حادثات أو أضرار!.

هذه مصر، التزامها قبل السودان والإخوة السودانيين على قدرها وقدرهم، والتفاتها إليهم هو التفات واجب إلى حبة القلب، وشريك التاريخ والواقع والمصير!